إشكالية :
تاريخيّة التفسير ومتطلبات الحداثة

الأستاذ حسن مزيو

نشأت الحاجة إلى التفسير بمجرّد انقطاع الوحي نتيجة لوفاة الرسول (ص) إذ وجد المسلمون أنفسهم إزاء وضع جديد، برزت أولى ميزاته بسرعة في أحداث السقيفة التي كادت تعصف بكيان الجماعة الإسلامية.

ولئن أحدثت الوفاة فراغا نفسيا كبيرا عند الجماعة المنضوية تحت لوائه، وهذا يبدو أمرا طبيعيا - خارج التّصور المثالي للتاريخ - لأنّ غياب القائد، خاصة في المجتمعات التقليدية، من شأنه أن يُربك التوازن الذي كانت تستمدّه من شخصيّته القوية، سيّما عند تعلّق الأمر بشخصية استثنائية هي المرجع في كل شيء، فانقطاع الوحي أحدث فراغا تشريعيا جعل الجماعة الإسلامية مجبرة على التعامل مع مستجدّات الواقع، أو أن تستنبط حلولا بالاجتهاد وفق ما تراه متلائما مع مقاصد الشريعة، فيما لم يرد فيه حكم أصلا.

هكذا إذن - بانقطاع الوحي - وجد المسلمون أنفسهم يتدرّجون نحو وضع تأويلي جديد، لم يعد فيه مجال للقول الفصل، وآل أمر البتّ في القضايا إلى كبار الصحابة والتابعين ثم إلى خلفهم من الفقهاء وعلماء

الحديث والمفسرين وأهل الكلام وذلك بترجيح معنى على آخر أو إثبات مشروعية حكم دون آخر، كلّ حسب اجتهاده أو بانتمائه المذهبي أو مجال اختصاصه. وبذلك تحوّل معنى النص إلى نصوص.

في هذا السياق ينبغي فهم نشأة التفسير، أي باعتباره نتيجة معقولة لغياب متلقي الوحي وتطوّرات الواقع؛ وينبغي فهمُ انفتاح التفسير على إمكانات تأويليّة عديدة لكنّ هذا الواقع أدّى إلى استحواذ المفسّر على سلطة المعنى، حتى أصبح ما يقوله المفسّر عن النصّ مُماهيًا للنص ذاته؛ وكأن المفسّر صار خليفة للنبي، وانفرادُ المفسّر عن غيره بملكية المعنى جعله سلطة في أذهان القرّاء فأحاطوا خطابه بهالة من الاحترام إن لم يكن من التقديس، حتى أصبح التعامل معه - عمليًا - لا يختلف، بل مساويا لكلام الله. والمتتبع لتطوّر خطابات التفسير عموما، وما استقرّ في أذهان المسلمين بالإطلاع على فلك التفاسير - مفصّلة أو مجملة - يُلاحظ بيسر أن النص القرآني أصبح يُقرأ بواسطة المفسّر، وهي وساطة ملزمة بشكل أو بآخر، ولعلّ هذا ما يسمح بالحديث عن تشكّل مؤسسة تأويلية، لئن لم يكن لها دور رسمي معلن، فقد كانت موظّفة دائما لدى السلطة القائمة لتدافع عن تفسير دون آخر أو تثبت معنى على حساب معاني أخرى حسبما تقتضيه الخيارات المذهبية والإكراهات الايديولوجية والحقيقة أن التفاسير على كثرتهم - قديما وحديثا - كانت وتبقى دائما موسومة بالتقصير في بيان معاني القرآن - لأنّ مسلّمة كبرى ترسّخت في أذهان المفسّرين مفادها: أن ثمّة فارقا نوعيا بين القرآن وما يكتب عنه، بين كلام الله وكلام البشر، وأنّ المفسّر الرّاسخ مهما بذل من جهد لن يحيط بأسرار التنزيل، حتى أصبحت عبارة «والله ورسوله أعلم» بمثابة الأزمة في جلّ التفاسير بعد أن يورد المفسّر تأويلات كثيرة للآية الواحدة، وحتى بعد أن يقدّم ترجيحةً لواحدة منها.

وفي القرآن نفسه آيات توكّد هذه المسلّمة أو على الأقل فهمت منذ العصر الإسلامي الأول على أنها كذلك؛ منها قوله تعالى: «قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربّي لنَفَذَ البحر قبل أن تَنْفَذَ كلمات ربّي ولو جئنا

بمثله مددًا» [1] هكذا إذن اكتسى النصّ القرآني في وعي المثقفين خاصّة سِمةَ النّص المفتوح على تأويلات شتى [2].

وفي هذا السياق بالذات يقول محمد أركون مقدّما لفصل كَتَبَهُ تحت عنوان «كيف نقرأ القرآن» ما مفاده أن «القرآن واحد من تلك النصوص ذات البعد الكوني، قيل عنه الكثير وكُتبَ عنه الكثير ويبقى رغم ذلك غير مفهوم» ؛ وعبارته بالفرنسية :

Le Coran est un de ces textes de Portée Universelle sur lequel on a trop dit, trop écrit et qui demeure cependant mal connu . [3]

وكأنّه بذلك يؤكد ما قاله القدامى عن لا محدوديّة علم التفسير قياسا إلى علوم إسلامية أخرى ؛ منها ما نضج واحترق، وهي النّحو والأصول ومنها ما نضج ولم يحترق وهي الفقه والتاريخ، وعلم لم ينضج ولم يحترق وهو علم التفسير والبيان.

لكن مجرّدِ الإقدام على التفسير مع الإقرار بلا نهايته في التعامل مع النص القرآني يُعْتبرُ في حدّ ذاته خطوة إيجابيّة، لأن بعض علماء الإسلام الأوائل رفضوا الخوض في معاني الآيات، وأحجموا عن التفسير، إجلالا للقرآن وخوفا من الوقوع في الخطأ ولعلّ أوّلهم الصّديق أبو بكر حين سئل عن الفاكهة والأب من سورة «عبس» فقال «أيّ سماء تظلّني إن أنا قلت في كتاب اللّه ما لا أعلم» [4].

ثمّة إذن مفارقة بقيت ملازمة لوعي المسلم في علاقته بالقرآن : انفتاح النّص على معان كثيرة ومختلفة من جهة، وتحوّل القول الفصل في شأن المعنى إلى المفسّر نيابة عن النبئ (ص) من جهة أخرى.

---

(1) - الكهف - / 109 - وانظر أيضا : لقمان / 27.

(2) L'Umberto : L'œuvre ouverte. Paris, Seuil 1965

(3) Mohamed Arkoun. Lecture de la Fatiha in lectures du Coran. Maisonneuve - La Rose. Paris 1982 Page 1.

(4) ابن كثير - التفسير 4/3/4.

ولئن لم يشعر المسلمون بالحاجة إلى التفسير بالمعنى المتعارف عليه للمصطلح خلال فترة النبوّة لأن القرآن نزل بلغتهم وقد ملكوا ناصيّة العربيّة ومسكوا زمامها [5] فإنّ الحاجة إلى التفسير تنامت باطّراد مع تطوّر المجتمع الإسلامي لاعتبارات تشريعية وعقائدية وكلامية ومعرفية ومذهبية فكثرت التفاسير واختلفت توجهاتها وتلوّن طابعها باختلاف ثقافة المفسرين وتباين توجّهاتهم المذهبية، وتمايز الفترات التاريخية التي عاشوا خلالها، وهذا ما يجعلنا نؤكد على ضرورة الوعي بتاريخية الخطاب التفسيري، ليس للتمييز بين التفاسير القديمة والحديثة فقط، بل أيضا لإدراك الفوارق بين عناصر المجموعة الأولى نفسها، وهو ما يقتضي فهم التاريخية على مستويين : مستوى خطّي أفقي ينبّه مثلا إلى الفوارق بين تفسير : جامع البيان في تفسير القرآن لمحمد بن جرير الطبري (ت 310) ومفاتيح الغيب لمحمد بن عمر الرازي (ت 606) ومستوى عمودي شاقولي ينزّل خطاب التفسير ومفاتيح الغيب لمحمد بن عمر الرازي (ت 606) في الواقع بما يقتضيه من تدافع بين الناس وصراع على مصالح غير معلنة ؛ أي أن لا ينظر إلى عمل التفسير بوصفه مجرّد استجابة لرغبة خاصّة أو انعكاسا بسيطا لنوع من الترف الفكري.

وحسبنا للاقتناع بذلك، الإشارة إلى المحنة التي عاشها محمد أحمد خلف الله بعد تأليفه لأطروحة جريئة عن «الفنّ القصصي في القرآن» وكذلك مصادرة بعض السلطات العربية لتفسير طنطاوي جوهري «الجواهر في تفسير القرآن الكريم». بل أن انتشار تفسير قرآني ما على حساب تفاسير أخرى هو في حدّ ذاته علامة دالّة على مسار الصراع الإيديولوجي في لحظة تاريخية مخصوصة ؛ والأمثلة على صلة خطاب التفسير بالواقع أكثر من أن تُحصى ؛ وهو ما أدّى إلى تعقب المفسرين أنفسهم بعضهم للبعض الآخر مثل ما فعل ابن القيّم الجوزية وابن المنير في هجومهما السافر على الزمخشري المعتزلي صاحب الكشاف.

---

(5) عبد الرحمان ابن خلدون. المقدمة - دار إحياء التراث العربي بيروت ط 3 / 438 (د.ت).

هكذا نلاحظ إذن أن إشكالية التفسير ليست ناتجة فقط عن موقف عقائدي أقرّ من البداية بلا محدودية القرآن، بل ناتجة أيضا عن سيرورة صراعية هي من مقتضيات تاريخية الواقع العربي الإسلامي في تطوّره ؛ وليس ما يُلاحظ بين مجموعة التفاسير الكلاسيكية والتفاسير الحديثة من جهة وما أشرنا إليه لَمّا من التنوع والاختلاف ضمن عناصر المجموعة الثانية من جهة أخرى إلاّ نتيجة منطقية للتفاعل بين مبدأ الانفتاح وقانون التاريخية.

ومادمنا نتحدث عن تاريخية التفسير، ثمّة ظاهرة أخرى لا بدّ من أن نشير إليها ويمكن إدراجها تحت تسمية «التقادم» [6] وقد ساهمت فيما نعتقد بدور ضالع في تعقيد إشكالية التفسير ذلك أن زيادة المسافة الزمنية ابتعادا عن نشأة النصّ، أي عن فترة نزول الوحي في قضيّة الحال، عمّقت هُوّة الاختلاف في فهم آيات الكتاب فكلّماَ تقادم النّصّ تضاءلت إمكانات التمثّل المطابق لمضامينه، لأنّ من شروط حصول ذلك التمثّل استرجاع المعطيات السياقية التي يسميها علماء التفسير «أسباب النزول» ويسمّيها البعض - مناسبات النزول» - وما لُجُوء المفسرين المتأخرين إلى الاستعانة بأسباب النزول إلاّ سعي للاقتراب من زمن الوحي الذي ولّى ولن يعود. وإذا كانت هذه الظاهرة - ظاهرة تضاؤل إمكانات التمثل المطابق لمضامين النص كلّما تقادم - تنسحب على كلّ النصوص، فالأمر بالنسبة إلى النصّ القرآني يبدو أكثر عُسرا لأنه نصّ مختلف عن كلّ النصوص التي سبقته أو التي لحقته [7] فهو متميّز بذائقة أسلوبيّة ارتفعت به عن مستوى النثر والشعر، فَلاَ هو نثرٌ على ما تعارف عليه أصول النَّثر، ولا هو شعرٌ على ما تُحتّمه ضرورات الشّعر بل هو فنّ خاصّ قائم بذاته سمّي بالقرآن. فهو قرآن وكفى. فيه ما فيه من أساليب البلاغة والبيان كالتقديم والتأخير

(6) ليست التسمية من قبيل «الحدوث والقدم الكلاميين» وإنّما المقصود «ابتعاد زمننا الحاضر عن وقت نزول الوحي».

(7) هو كذلك - على الأقلّ بالنسبة للمسلمين.

والتشبيه والإستعارة، والكناية والتورية ومختلف أنواع المجاز بالإضافة إلى فواتح بعض السور الأحرفية ممّا اعتبر شهادة دامغة على الإعجاز. [8] وكان لا بدّ على المفسرين من النهوض بمسؤولية الدفاع عن فرادة القرآن وتنزيهه عن الخطأ أو التناقض أو الإسفاف، ممّا يندرج ضمن مطاعن خصوم الإسلام.

وبتقدم الزمن وتفاقم الصراع المذهبي أصبح إتقان علوم القرآن شرطا أساسيا للإقدام على التفسير حتى يكون المفسّر مُلمّا بكلّ القضايا السالفة.

ومن العوامل الهامّة التي عرقلت ومازالت تعرقل خطاب التفسير، هيمنة التوجّه النقلي على إرهاصات التوجه العقلي ؛ أي سيطرة التفسير بالمأثور على التفسير بالرأي، وذلك نتيجة الهيمنة الفعلية للمذهب السّني على المذاهب الأخرى ممّا جعل المساحة التي يتحرّك داخلها المفسّر مسيّجة، وأفقَ تفكيره محدودا.

وبفعل تراكم التفاسير التي استندت إلى آليات قويّة مثل التكرار والسكوت والتوفيق، انتهى الأمر إلى وضعية أصبح فيها المفسّر أيّا كانَ مذهبه، أو حرصه على التجديد، غير قادر على الاجتهاد، لأنّ بعض الاجتهادات السابقة تحوّلت شيئا فشيئا إلى مسلّمات قطعيّة الدّلالة يُتعامل معها بوثوقية كبرى [9] وهكذا اندرج تفسير القرآن مثل سائر العلوم الإسلامية ضمن دائرة التقليد بفعل ما يسميه البعض انغلاق السنّة الثّقافية، وأصبحت التفاسير، وتلاخيصها، وحواشيها، وهوامشها تمثّل حاجزا كثيفا، يحجب عن المسلم النص القرآني ويمنعه من تدبّره وقراءته بعفوية وبراءة.

---

(8) جلال الدين السيوطي - الإتقان في علوم القرآن دار قرهمان استانبول ط 1978/4. ح 160/2.

(9) هكذا تعامل الفقهاء والمفسّرون مع ما أقرّه الشافعي اجتهادا في رسالته مثل : الارتقاء بمنزلة السنّة إلى منزلة القرآن في الحجيّة، والإعلاء من حجيّة خبر الآحاد. ويعتبر الإمام محمد عبده من المفسّرين القليلين الذين لم يعملوا بذلك في تفاسيرهم.

وما كادت صدمة الحداثة تفعل فعلها في العقول والضمائر حتّى وَجَدَ المفسّر المعاصرُ نفسه إزاء مسؤوليّة جسيمة : إرث ثقافيّ ثقيل لا بدّ من غربلته ونقده ؛ ومعارف جديدة، وافدة لا مناص من الاستفادة منها والاستعانة بها لتقديم أجوبة مقنعة عن أسئلة ملحّة هي من صميم الحاضر، وبين هذا وذاك، كتاب مقدّس يتصدّر الدّائرة المركزية في الثقافة العربية الإسلامية ويسْكنُ هواجس الضمير الجمعي.

والإشكالية هنا، كيف سيتعامل المفسرون في العصر الحديث مع هذا الوضع الشائك ؟ هل سينسفون الإرث ويتجاوزونه بتوخي مناهج جديدة كلّ الجدّة في استقراء كتابهم ؟ أو سيُعيدون إنتاج القديم في ثوب جديد ؟ وإذا لم يكن هذا ولاَ ذاك، هل سيكتفون بنقد محتشم للتفاسير القديمة مع الاستضاءة ببعض أنوار المعارف الحديثة ؟

هذا ما يتعيّن علينا الجواب عنه من خلال بعض النماذج الممثلة لخطاب التفسير في العصر الحديث.

الواقع إذا نظرنا إلى التفسير بين ماضيه وحاضره، وجدنا أن الأوائل لم يتركوا للأواخر كبير جهد في تفسير كتاب اللّه ومحاولة الكشف عن معانيه ومراميه حيث تناولوه من أول نزوله بدراستهم التفسيرية التحليلية دراسة سارت مع الزمن على تدرّج ملحوظ وتلوّن بألوان مختلفة.

والذي يقرأ كتب التفسير على اختلاف ألوانها لا يداخله شكّ في أن كلّ ما يتعلّق بالتفسير من الدراسات المختلفة قد وَافَاه هؤلاء المفسّرون الأقدمون حقه من البحث والتحقيق، فالناحية اللغوية والناحية البلاغيّة والناحية الأدبية والناحية النحوية، ومثلها النواحي الفقهية والمذهبية والكونية الفلسفية، كلها وغيرها تناولها المفسرون الأوّل بتوسّع ظاهر ملموس لم يتركوا لمن جاء بعدهم. - إلى ما قبل عصرنا بقليل - من عمل جديد أو أثر مبتكر يقومون به في تفاسيرهم التي ألّفُوها ؛ إلا ما كان عملا ضئيلا، لا يتعدّى جمع أقوال المتقدّمين أو شرح غامضها، أو نقد ما

يعتريها من الضعف، أو ترجيح رأي على رأي، ممّا جعل التفسير يقف وقفة طويلة مليئة بالركود، خالية من التجديد والابتكار [10].

ولقد ظلّ الأمر على هذا الوضع، وبقي التفسير واقفا عند هذه المرحلة، لا يتعداها، ولا يحاول التخلّص منها حتى جاء عصر النهضة العلمية الحديثة بمشاغله الكثيرة على المستويين الاجتماعي والثقافي، واهتمّ مفكّروهُ بقضايا المرأة والتعليم ومسألة العمل وظاهرة الرقّ. وهي مشاغل نبّه الاتصال بأوروبا إلى أهمّيتها في حياة المجتمعات الإسلامية وقتها، لا من حيث ما اشتملت عليه كلّ قضية من قيم ومضامين عامّة، وإنما من حيث الوعي بنظرة جديدة ترسم آفاق مجتمع مختلف عن المجتمع التقليدي؛ ولو لم تكن تلك النظرة الجديدة إلى القضايا التي ذكرناها عميقة في تغيير فهم القيم السائدة لما كان ليهتمّ بها علماء المسلمين فيجتهدوا في البحث عن أجوبة للمساءلات الكثيرة التي أصبحت تضايق الضمير الإسلامي وتحرجه، وسبب المضايقة هذه، والإحراج؛ وعيُ الضمير الإسلامي بأن المجتمعات الإسلامية لا يمكن أن تَبقَى بمعزل عن الظواهر الجديدة، وان سادت في البلاد الأوروبية؛ بل إن تلك الظواهر يمكن أن تمثّل بوجه من الوجوه أفقَ تطوّرها، وأنه لا مناص إذن من إحكام الاجتهاد تحقيقا للملاءمة الصادقة بين مقاصد الشريعة الإسلامية ومقتضيات العصر الحديث.

في هذا الإطار الحضاري ينبغي تنزيل تفسير القرآن في العصر الحديث، ومعنى ذلك: الإقرارُ مبدئيا بأمرين: أوّلهما أن التفاسير التي ألّفت منذ بداية القرن التاسع عشر تندرج في حركة إصلاحية عامّة، أو هكذا تريد أن تكون على الأقل. ثانيهما: أن التفاسير الحديثة، تختلف بشكل أو بآخر عن التفاسير القديمة.

وإذا كان الإقرار بالمبدأ الأول لا يثير جدلا كبيرا، فإن الإقرار بالثاني يحتاج إلى توضيح اعتبارا لما يحفُّه من إشكاليات سنُحاول تفكيك البعض

(10) محمد حسين الذّهبي - التفسير والمفسّرون ج 161/2 دار إحياء التراث العربي ط 2 (د.ت).

من جوانبها بما يساعد على استنطاق النصّ القرآني والكشف عن خلفياته وفهم مقاصده.

ولئن سعى أغلب المفسّرين المحدثين إلى التمايز عن المفسرين الكلاسيكيين من حيث شكليّة وتنوّع ووفرة مصنّفاتهم، وتبسيط عبارتها معلنين عن ذلك صراحة في مقدمات تفسيرهم [11] فإنّ ما يسترعي الانتباه هو تجاهل المفسّر اللاحق لإنجاز المفسّر السابق، بحيث أصبحت كثير من التفاسير نسخا شبهَ مطابقة لبعضها البعض تحت عناوين مختلفة. ويكاد مبرّر التبسيط يستحيل إلى تعلّة لإصدار تفسير «جديد» فتفَشّتْ بذلك ظاهرة التّراكم وقلّتْ الإضافة، وأصبحتْ الغاية أقربَ إلى المنفعة الفردية أو المؤسساتية منها إلى النفعية الإصلاحية العامة. ويكفي للاقتناع بذلك أن نتأمّل في كثير من مقدّمات التفاسير الحديثة لنجد قاسما مشتركا بينها يتمثّل في حرص المفسّرين على الإعلان عن استفادتهم من التفاسير القديمة المشهورة، وحرصهم أكثر على طمأنة القارئ بكونهم أتْقَى من أن يتطاولوا على أصحابها أو يستنقصوا جهودهم أو يَهدموا ما بنَوْه، أو يَخْرُجوا كلّيا عن المسلك الذي سطّره الأقدمون [12] والمتمعّن في متون هذه التفاسير المعاصرة يلاحظ أن أصحابها صدقوا وعْدهم فيما عاهدوا عليه القارئ من وفاء للتفاسير الكلاسيكية فلا تكاد تخلو صفحة من الإحالة على الطبري أو القرطبي أو ابن كثير أو الفخر الرازي ؛ فهي إحالات لها وظيفة إقناعية في إثبات معنى أو إزاحة تأويل [13] بالإضافة

---

(11) أحمد مصطفى المراغي = تفسير المراغي دار إحياء التراث العربي بيروت ط 1974/3 ص 3.
- محمد حجازي : التفسير الواضح مطبعة الإستقلال الكبرى القاهرة ط. 6-1969 ص 5
- محمد علي الصابوني = صفوة التفاسير دار القلم بيروت ط 5.1399 هـ ص 20
- وهبة الزحيلي : التفسير المنير دار الفكر المعاصر بيروت ط 1991/1 ج1 ص 5
- رشيد رضا : تفسير المنار - ص 1 (م س)

(12) أنظر : محمّد علي الصابوني (ن م) /20. و- وهبة الزحيلي (ن م) 8 - ومحمد الطاهر بن عاشور (إن م) / 7

(13) جريا على ما كان يعتبره بعض المفكّرين العرب «حجّة إسكات» عندما يتعلّق الأمر بشاهد أرسطي.

إلى كونها تكسب ميثاق القراءة فائضا يزيد القارئ شعورا بالسلامة، ويضاعف من حماية المفسّر من كلّ مطعن ممكن.

وتبعيّة المحدثين للقدامى تبعيّة لا تحتاج إلى كبير أدلّة لأنّها - في رأينا - بارزة جدّا، لكن حسبنا أن نقف على مثال واحد فيه من الوضوح ما يُغني عن المزيد. فماذا أضاف محمد عبده [14] والطاهر بن عاشور [15] ومحمد علي الصابوني [16] ووهبة الزحيلي [17] في فهمهم للآية 34 من سورة النساء «الرّجال قوّامون على النساء بما فضّل اللّه بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم فالصّالحات قانتَات، حَافظاتٌ للغيب بما حفظ اللّه واللاّتي تخافون نُشوزَهُنّ فعظوهن واهجُرُوهُنّ في المضاجع واضربوهنّ فإن أطَعْنَكُمْ فلا تبغوا عليهنّ سبيلا، إنّ اللّه كان عليّا كبيرا».

ماذا أضافوا إلى ما قاله ناصر الدين البيضاوي [18] في شأن القوامة والتفضيل ودواعي الضرب وكيفيّته فضلا عن مشروعيّته ؟

إنّ ما يسترعي الانتباه أكثر - فضلا عن اجترار المحدثين لأفكار الأقدميين في هذا المثال بالذات - هو أنّ جلّ التفاسير المعاصرة يكرّر بعضها البعض الآخر، فلا فرق بين ما ورد في المنار تفسيرا للآية ذاتها منذ قرن تقريبا وبين ما يثبته الزحيلي في تفسيره اليوم.

والغريب أيضا أن أكثر أصحاب التفاسير الحديثة ما زالوا مُحافظين على مسلّمة مَرَاتبيّة العصور الوسطى التي تقيس علاقة الرجل بالمرأة على علاقة الأب بابنه، والوالي برعيّته، والمعلّم بتلميذه، والسيد بعبده، فكأنّ الأحوال لم تتغيّر والأزمنة لم تتبدّل على مدى القرون. وليس ما سقناه

---

(14) تفسير المنار ج 5 من ص 67 إلى ص 75.

(15) التحرير والتنوير ج 3 سورة النساء ص 39/38 - 44/.

(16) صفوة التفاسير المجلّد الأوّل ص 274.

(17) التفسير المنير ج 5 ص 57.

(18) ناصر الدين البيضاوي : أنوار التنزيل وأسرار التأويل، دار الكتب العلمية ط 1 بيروت 1988 المجلّد الأوّل ص 213

من مثال، استثناءً كما قد يتبادر إلى بعض الأذهان وإنّما الظاهرة عامّة سواء تعلّق الأمر بتعدّد الزوجات أو الإرث أو الربا أو السرقة أو الزنا أو بالقصص القرآني أو بمسائل غيبية من قبيل قيام الساعة وكيفيات الثواب والعقاب أو بقضايا كلامية بارزة مثل قضية الجبر والاختيار [19] الأمرُ الّذي جعل الطاهر بن عاشور لم يجانب الصواب في حكمه على التفسير السائد في عصره حينَ وَصَفَهُ بأنّه «عالة على كلام سابق، لاَ حظّ لمؤلّفه إلاّ الجمع، على تفاوت بين اختصار وتطويل» [20].

ثمّ إنّ إعادة إنتاج خطاب المفسّرين القدامى سيّما في طرحه لأمّهات القضايا المتعلّقة بتنظيم الحياة الاجتماعية ليس دليلا فقط - على هيمنة الثقافة النقليّة على الثقافة العقلية النقدية في التفسير الحديث إنما هو دليل أيضا على تاريخيّته.

ومن مظاهر التقليد في التفسير الحديث الالتجاء إلى أسباب النزول والمناسبات، فلا يكاد يخلو تفسير من ذلك، وإذا كان من المفروض الإقرار بأهمّية استحضار أسباب النزول بما يساعد على الإلمام بالسياق، فإنّ جلّ المفسّرين المحدثين نقلوا تلك الأسباب عن المفسّرين القدامى دون نقد جادّ لما ورد فيها سندا أومتنًا، وبتغافلٍ كبير أحيانا عن خلفياتها، فضلا عن عدم انسجامها أحيانا أخرى مع السياق، فهم يعيدون كتابة تلك الأسباب بتناقضاتها واختلافاتها.

هكذا يبدو إذن أن تعْويل جلّ المفسّرين المحدثين على التفاسير القديمة بتكرار مضامينها والنسج على منوالها، واستحضارهم إشكالياتٍ ليست من مشاغل القارئ المعاصر ؛ والخوض فيها انطلاقا من مسلّمات معرفية كلاسيكية ؛ يفرض علينا القول والإقرار بأنّ تفسير القرآن في العصر

(19) هناك من «المفسّرين» المحدثين من أعاد النظر في أقوال القدامى بشأن هذه القضايا وغيرها مثل محمد أركون ومحمد الطالبي وغيرهما ممن سنبرزهم لاحقا، لكن ما نسجّله هنا ينسحب على السائد من التفاسير وأكثرها رواجا.

(20) التحرير والتنوير الجزء الأوّل ص 7. (م س).

الحديث لم يندرج بعْدٌ في فضاء الحداثة، وإن كانت معطيات التحديث المادّي ونتائج التقدم العلمي والتقني، والثورات المعرفية قد فرَضت على أصحابه أسئلة محرجة دفعت البعض منهم إلى مراجعة بعض الثوابت والمسلّمات أو استحداث طريقة غير معهودة في استنطاق النصّ القرآني، ممّا يمكن إدراجه في خانة مظاهر التجديد.

ومهما اختلف الدارسون في حجم الإضافة التي قدّمها تفسير المنار [21] فإنّه من العسير التنكّر إلى أن محمد عبده ورشيد رضا يعتبران رائدي التجديد في العصر الحديث وقد حظي تفسير المنار باهتمام منقطع النّظير من قِبَل أهل الاختصاص ويتجلّى ذلك في مستويين على الأقل : أوّلهما، نسج الكثير من التفاسير اللاحقة على منواله، واستفادة جلّ المفسّرين منه، صرّحوا بذلك أم سكتوا [22] وثانيهما : تحوّله إلى مجال بحث في كثير من الدراسات الأكاديمية [23].

ويتميّز تفسير المنار عن التفاسير التي سبقته بتغيير زاوية النظر إلى القرآن. يقول صاحباه : «والتفسير الذي نطلبه هو فهم الكتاب من حيث هو دين يرشد الناس إلى ما فيه سعادتهم في حياتهم الدنيا وحياتهم الآخرة فإنّ هذا هو المقصد الأعلى منه وما وراء هذا مِنَ المباحث تابعٌ له أو وسيلة إلى تحصيله» [24] وفعلا فإنّ مركز الاهتمام في تفسير المنار لم يعد إبراز وجوه البلاغة ولا تحليل ما تضمّنه القرآن من إشارات علمية أو

---

(21) عبد المجيد الشرفي - الإسلام والحداثة الدّار التونسية للنشر. 1990 من الصفحة 65 إلى ص 69.

(22) يكفي أن نذكر في هذا الصدد أن تفسير المراغي يكاد يكون إعادة لكتاب تفسير المنار بإضافة شكلية تتمثل في التبسيط والتبويب

(23) منها : أطروحة جوميي :
J. Jomier : Le Commentairaire Coranique du manar. (Tendances modernes de l'éxègese Coranique en Egypte). Paris Maisonnerise 1954.
انظر كذلك عبد الله شحاتة : منهج محمد عبده في تفسير القرآن الكريم جامعة القاهرة 1984

(24) تفسير المنار ج 1 ص 25.

تفصيل ما ورد فيه من أخبار تاريخية، أو معجزات نبوية، أو تفاصيل غيبيّة، إلى غير ذلك ممّا أطال فيه المفسّرون القدامى، بل «الذهاب إلى فهم المراد من القول وحكمة التشريع في العقائد والأحكام على الوجه الذي يجذب الأرواح ويسوقها إلى العمل والهداية المودعة في الكلام ليتحقق فيه معنى قوله تعالى : «هدى ورحمة» ونحوهما من الأوصاف».

ولا شكّ أنّ هذا التغيير في زاوية النظر إلى القرآن مرتبط عُضويّا بهاجس الإصلاح لدى الشيخين محمد عبده ورشيد رضا، إصلاحا يوظّف التفسير لتغيير ما ترسّخ في عقول النّاس من أفكار، عساهما يساعدانهم على الترقي والتمدّن والخروج من التخلّف. وبهذا المعنى يمكن القول : إن التفسير عندهما وسيلة لا غاية. ورغم ذلك نجد من المفسّرين اليوم من يعود إلى كتابة خطاب التفسير القديم على علاّته في ثوب جديد، دون اعتبار لما جاهد محمد عبده في ترسيخه من اجتهاد وإعمال للرأي. بل يُوجد من ينبري أحيانا للردّ على مقولاته صراحة أو ضمنيّا [25].

هكذا يتّضح إذن أنّ أكبر دفع نحو التجديد في المنهج والمضمون يعود إلى بداية القرن العشرين في شكل دروس تفسيرية ألقاها الشيخ محمد عبده في الأزهر من سنة 1899 إلي سنة 1905 - وفسّر فيها سورة الفاتحة والبقرة وآل عمران والنساء حتى الآية 125 فنشر تلميذه محمد رضا تباعا في مجلّة المنار مَا قيّده عن أستاذه، مقدّمًا له بعبارة : «قال الأستاذُ الإمَامُ» ومضيفًا إلى عبارة : «أقول» ما يسنح له من التعليقات، ثم واصَلَ بمفرده حتى الآية 107 من سورة يوسف. لكن ماذا عن حظّ التفاسير اللاحقة من التجديد ؟

فهْمُنا للتجديد بمعناه الواسع في التفاسير الحديثة يسمح لنا بالتمييز، بين اتجاهين كبيرين يسمّى أوّلهما بالتفسير العلمي الذي يرمي إلى جعل القرآن مشتملا على سائر العلوم، ما جدّ بينها وما لم يجدّ، وقد

(25) محمد علي الصابوني في صفوة التفاسير وسيّد قطب - في ظلال القرآن من الصفحة 3960 إلى الصفحة 3970 بالخصوص في تفسير سورة الفيل المجلد السادس ج 3.

استشرى أمره في هذا العصر الحديث وراجَ لدى المثقفين الذين لهم عناية بالقرآن الكريم وبالعلوم. وكان من أثر هذه النزعة التفسيرية العلمية أن أخرج لنا المشغوفون كثيرا من الكتب يحاول أصحابها فيها أن يحمّلوا القرآن كلّ علوم الأرض والسماء وأن يجعلوه دالاّ عليها إنْ بالتصريح أو بالتلميح اعتقادا منهم انّ في ذلك بيانا لناحية من أهمّ نواحي صدق القرآن وإعجازه وصلاحيّاته للبقاء، ولعلّ أكثرهم إنتاجا لهذا النوع من التفسير الشيخ طنطاوي جوهري (ت : 1940) في كتابه الجواهر في تفسير القرآن» وقد سار على منهجه عدد كبير من المفسرين والدّارسين للقرآن من بينهم محمد بن أحمد الإسكندراني من علماء القرن الثالث عشر هجري في كتابه «كشف الأسرار النورانية القرآنية فيما يتعلّق بالأجرام السماوية والأرضية والحيوانات والنباتات والجواهر المعدنيّة»، ومن هؤلاء أيضا عبد الله باشا فكري في مقارنة بعض مباحث الهيئة، بالوارد في النصوص الشرعية. وقد طبعت بالقاهرة سنة 1315 هـ. ومحمد توفيق صدقي وعبد الحميد بن باديس وعبد الرزاق نوفل ومصطفى محمود [26].

أمّا الاتجاه الثاني فهو مَا اصطلحَ على تسميته بالتفسير الموضوعي، وهو دراسة القرآن موضوعا موضوعا، وان تجمع الايات الخاصة بالموضوع الواحد من القرآن جمعا إحصائيا مستفيضا ويعرّف بترتيبها الزمني ومناسباتها وملابساتها الحافّة بها ثم ينظر فيها بعد ذلك لتُفسّر وتُفهم، فيكون بذلك التفسير أهدى إلى المعنى وأوثق في تجديده [27].

وفي هذا المنهج كشفٌ للصور المتعدّدة من الموضوع الذي يعرض له القرآن أكثر من مرّة كالحديث عن موسى وبني إسرائيل مثلا، إذْ يقوم المفسّر التقليدي بالحديث عنها في جزء من التفسير، والعودة إليه في

---

(26) عن هذه التفاسير أنظر على سبيل المثال - هند شلبي التفسير العلمي للقرآن الكريم بين النظريات والتطبيق مطبعة تونس قرطاج ط 1 1985.

- محمد حسين الذهبي التفسير والمفسّرون (م س) 497/2 - 518.

(27) أمين الخولي : دائرة المعارف الإسلامية. مادّة تفسير 368/5.

جزء آخر، بينما يقوم هذا المنهج بإحصائها وترتيبها، ويكشف بذلك قدرتها على استنباط حقائق الأشياء بالصور المختلفة التي حاولها القرآن بحسب مناسبة النزول وقرائن الأحوال، وهنا يظهر العمق البلاغي للقرآن أكثر فأكثر، حيث يكون الإلمام بالموضوع، والإحاطة به قد استوعبا جميع الجهات والوجهات، فيصبح التفسير جامعًا مانعًا [28] فهو منهج يقوم في جملته على وضع المفردة القرآنيّة في سياقها لاَ من السورة فحسب، بل في كامل السياق القرآني ممّا يساعد على فهمها ضمن حقل دلاليّ معيّن، وقد أرسى قواعد هذا المنهج الشيخ أمين الخولي [29] وطبّقته عائشة عبد الرحمان بنت الشاطئ [30] وشوقي ضيف [31] وغيرهما واستفاد من بعض إيجابياته دارسون آخرون بدرجات متفاوتة.

وبذلك نقول : إن خطاب التفسير في العصر الحديث لا يخلو مِنْ محاولات جادّة في اتجاه التجديد، ويبقى تفسير المنار أكثرها توجّها نحو التحديث بما يتوفّر عليه من جرأة في الاجتهاد وإعمال الرأي، وفيما يمكن اعتباره تمرّد على النموذج التفسيري القديم.

بقي أن نشير إلى بعض المحاولات المتجهة نحو التجديد الجذري في تفسير القرآن، والتي تتجاوز نوعيا كل المحاولات، والتي رغم قلتها وتحرّكها في دائرة ضيّقة، لم تتجاوز بعد إطار البحث الأكاديمي، فهي تفتح آفاقا غير معهودة في استنطاق النص القرآني. أشرنا آنفا إلى رسالة «الفنّ القصصي في القرآن الكريم» التي أشاد بها بعض المتحمّسين إلى التجديد واعتبروها استثناء واعدًا. والحقيقة أن القراءة التي قدّمها صاحب الرسالة للقصص القرآني ليست سوى تعميق لفكرة طرحها الإمام محمد عبده في المنار، وهذا بالطبع لا ينقص من قيمة المجهود الذي بذله صاحب

(28) محمد حسين علي الصغيّر - المبادئ العامّة لتفسير القرآن الكريم. المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر والتوزيع بيروت 1982.

(29) أمين الخولي : التفسير - نشأته - تدرّجه - تطوّره. دار الكتاب اللبناني بيروت ط 1. 1982

(30) عائشة عبد الرحمان (بنت الشاطئ) التفسير البياني للقرآن، دار المعارف مصر. 1968

(31) شوقي ضيف - تفسير سورة الرحمان وسور قصار، دار المعارف مصر 1980

الرسالة في البرهنة على الأطروحة، ولا من الجرأة النادرة التي تحلّى بها لمواجهة المحافظين ولاختراق نسيج ثقافيّ متكامل قائم على حصانة دينيّة قوية، لكن ما ينبغي الانتباه إليه، أنّ هذا التفسير للقصص القرآني لم يخرج عن البنية السّجاليّة المشتركة بين سائر التفاسير السابقة، حيث يقول الكاتب في خاتمة بحثه، مردّدا ما ذكره في المقدّمة «أمّا الرّدّ على الملاحدة والزنادقة والمستشرقين والمبشّرين فيقوم على أساس أن القرآن الكريم كان يقيم بناء القصّة على ما يعتقده المخاطب وعلى ما تُصوّرُهُ الجماعة من مسائل التاريخ وليس ذلك إلاّ لأنّه يريد الهداية والإرشاد ويقصد إلى العظة والعبرة، ولا يقصد إلى تعليم التاريخ أو نشر وثائقه بحال من الأحوال [32].

واضح إذن أن الهاجس الأساسي يتمثّل في الردّ عن الآخر لتنزيه القرآن عن الخطأ وتحصينه، وبعبارة علماء النفس يمكن القولُ : إنّنا إزاء كتابة رَدَّةٍ فعلّيةٍ غير متحرّرة عن سلطة الآخر.

ومن المحاولات التفسيرية المتفتحة على العلوم الإنسانيّة، قراءة المفكر محمد أركون المختصّ في الإسلاميات، لسورة الفاتحة التي قدّم لها بتمهيد منهجي عن كيفيّة قراءة القرآن وهي قراءة تندرج ضمن مشروع واسع وطموح يهدف إلى إعادة قراءة التراث عامة وقراءة الخطاب الديني خاصة.

ولقد استلهم المؤلف بكفاءة عالية بعض معطيات العلوم اللّسانية والأنتروبولوجية والإبستمولوجيا والتاريخ ووظّفها لفتح آفاق جديدة في التفسير نزّل فيها تفسيره لسورة الفاتحة. أمّا في تفسيره لسورة الكهف فقد قام بعرض ما أوردته التفاسير القديمة لهذه السورة في سياقه التاريخي ثمّ وضعها في الإطار الإبستمولوجي المتحكّم فيه مذكّرا بمنزلة

(32) محمد خلف الله - الفن القصصي في القرآن الكريم 8 / مكتبة الانجلو المصرية ط 4 مصر 1972.

القصّة عند المؤرّخين وأصدائها في كتب الديانتين اليهودية والمسيحية مستعينا في كل ذلك بمعرفته بالدّراسات المتعلّقة بتحرير الخطاب السّردي وكيفيات اشتغال المتخيّل الرّمزي في سائر الثقافات.

لكن ما قدّمه أركون في هاتين القراءتين ليس في الحقيقة تفسيرا للسورتين بل مشروعا لتفسير الأولى وتمهيدا لتفسير الثانية فهو يقول «إنّ ما يتوفّر من معارف الآن لا يسمح بالمخاطرة لتقديم صورة مرضية عن نصّ قصير كنصّ الفاتحة [33] ويُفْصح عن الموقف نفسه في نهاية دراسته عن سورة الكهف [34]. وفي سياق تجديدي، ربّما أقلّ طموحا وأكثر نجاعة يقدّم محمد الطالبي قراءة الآيتين 34 و35 من سورة النساء تحت عنوان «قضيّة تأديب المرأة بالضرب» [35].

وتتميّز هذه القراءة بحسّ تاريخي مكّن من وضع الآيتين في سياقها التاريخي مستفيدا من أسباب النزول ومتجاوزا إيّاها، وتبرزُ هذه الدراسة كيف أنّ المعرفة التاريخية العميقة وسعة الأفق المعرفي بأحوال البشر في كلّ الثقافات، والاطلاع الجيّد على تفاسير القدامى من شأنه أن يخْطُو بالاجتهاد مراحل كبيرة دون الخروج عن الدائرة الإيمانية. وتخلّص الطالبي إلى البرهنة على أن «القراءة المقاصديّة تُفْضي إلى منع الضرب إطلاقا» في أننا وفي زماننا، دون أن يطعن ذلك في مقولة صلوحيّة القرآن لكلّ زمان ومكان ودون أن يؤدّي إلى الخروج عن أحكام الدّين كما تُوهِمُ بذلك القراءةُ الحرفية للنّص. يقول الطالبي : «وهكذا فَمَنْ عمل بالاجتهاد قديما وحديثا، وَهُمْ قلّةٌ في كلْتَا الحالتين، ونظر إلى مقاصد الشريعة منع الضرب منعا باتّا متخطّيا في ذلك حرفية النّصّ لإدراك

---

(33) محمد أركون - نفس المصدر / 58

(34) يقـــــول : « Voilà pourquoi à ce point de notre iténeraire il nous semble nécessaire, méthodologiquement de laisser en suspens la lecture de la sourate 18 et de revenir à des exploitations préalables » op. cit. p 84.

(35) محمّد الطالبي، التفسير السهمي، درس افتتاحي عمومي بكلّية الآداب سوسة خريف 1999

مكنونه، وهذا الاتجاه هو الذي ينبغي أن نعمل به اليوم في هذه القضية وفي غيرها من نوعها إذا ما أردنا أن نفقه خطاب الله لنا في آننا وفي مكاننا حتى نكون مواكبين لعصرنا تماما» [36].

إنّ هذين النموذجين من التفسير الواعد يؤكدان حقيقة أن إمكانيات التجديد الجذري متوفرة، وليس على مفكري الإسلام إلاّ إخلاص النية في تدعيم العمل نحو مزيد من الانفتاح على علوم. العصر دون خوف مفرط على الإسلام والمسلمين، لأن ما ينفع الناس ماكث في الأرض لا محالة.. ودون حكم مسبق على النوايا ولا تساهل في إلصاق التّهم الخطيرة بالمخالفين لسنن التفسير السائدة، لأنّ الإصغاء إلى الرأي المخالف مهما كان مأتاه وبقطع النظر عن عقيدة صاحبه، يبقى الشرط الأساسي الّذي يتعيّن على المفسّر الواعي بسمات البحث الحديث، العمل به.

وفي هذا الإطار تجدر الإشارة إلى إمكانية الاستفادة من بعض مقدّمات التفاسير ومن الدراسات الواعدة حول إشكاليات التفسير [37]، كما تتعيّن الاستفادة الواعية من ترجمات القرآن لأنها بوجه من الوجوه تفسيرٌ ينقل المعنَى إلى لغة أخرى [38] إذ لا يعقل - على المستوى المعرفي - أن يتجاهل المفسّر للقرآن تجارب علماء الأمم الأخرى في قراءتهم للنصّ الديني، لأنّها تجارب ثرية ومفيدة بحكم استنادها إلى نظريات تُحظى بحدّ لا بأس به من الحصانة العلمية.

وفي خاتمة هذا البحث نصل إلى القول : إنه لا يمكن للمفسّر اليوم أن يرقى إلى درجة الاجتهاد الفعلي إلاّ إذا تشبّع بالروح العلمية السائدة في سائر الدراسات المعاصرة الجادّة وتوفّر لديه اطلاع واسع على أسس

---

(36) محمد الطالبي - (ن م)

(37) انظر على سبيل المثال : «مفهوم النّص» لنصر حامد ابو زيد و«الكتاب والقرآن قراءة معاصرة» : لمحمد شحرور شركة المطبوعات للنشر والتوزيع بيروت ط 1/1992.

(38) انظر عن ترجمات القرآن :

Jaxques Berque M Le Coran essai de traduction de l'arabe annoté et suivi d'une Etude exégétique. SINDBAD. Paris 1990.

ومناهج العلوم الحديثة، لأن القارئ أصبح يعيش وضعا تأويليّا جديدا يختلف جذريّا عن الوضع الذي عاشه السلف وبذلك يكون تطوّر الخطاب التفسيري مستقبلاً، رهين إرادة المفسّر خوض مغامرة الانخراط في فضاء الحداثة بكلّ ما في معنى المغامرة من مخاطرة ومتعة.

د. حسن مزيو
أستاذ في التفسير وعلوم القرآن
بالمعهد الأعلى للحضارة الإسلامية
جامعة الزيتونة